إلى أن يصدر الحكم

لو أن أحداً روى لي هذه الحكاية لما صدَّقت
لكن كيف أُكذِّبُ عينيَّ الملطختين بالدم ويديَّ ؟
عشتُ على تلك الجزيرة ثلاثين شتاءً وربيعا
عشتُ فضيحة النهارات وستر الليالي
عشتُ الأشجار الصخور الرائحة المالحة الحرائق
عرفتُ صيّاد السمك عن كتب
عرفت زوجته التعيسة وشبكته الفظيعة .
يعتبره بعضكم سفّاحاً رهيباً

يعتبره آخرون ضحيَّة بريئة
أمّا أنا فلا أستطيع أن أكون قاضياً
إنني كما تعلمون بحاجة إلى مَن يحكم عليَّ .
لا أنكر انني قتلتُ صيَّاد السمك المذكور أعلاه
لكنني لا أعلم إذا كنتُ أنا الآخر
مُجرماً أو ضحيَّة .
حدث ما حدث ، في طقس أحمق
يتوقف المطر فجأةً
ترتفع الحرارة من ٣ تحت الصفر حتى ٤٥ فوق الصفر
فجأةً ترتجف البارومترات في هلعٍ ظاهر
مصحوبة بالبروق والرعود
فجأةً يضجُّ نور النهار
تهبط العتمة الصلبة والكوابيس .
كان صيَّاد السمك رجلاً عادياً
يُشبه سكان حوض البحر الأبيض المتوسط
يلتقي في ملامحه الأوروبيون بالآسيويين بالأفارقة
أمّا زوجته فكانت مخلوقاً غريباً كما تعلمون .

كانت عاليةً مثل صار خرافي
رأسها مخروط هائل أملس
تغطّي ساقيها الثخينتين فروة شوكية
فمها في سرَّتها
ويخفق فوقه نهد كبير وحيد
أمّا عيونها الكثيرة فتحيط بكتفيها مثل خط الاستواء .
لم يكن صيَّادنا قانعاً بزوجته
ولم يجد العزاء في السمكة الذهبيَّة .
قلتُ له مرَّة : « لماذا تزوجتها » ؟
قال : « كان لا بدَّ لي من زوجة ولم تكن على الجزيرة امرأة غيرها !
وبعد إذ تزوجتها تدفَّق المستوطنون على الجزيرة
وازدحمت شواطئها الناعمة الدافئة بالنساء الجميلات » .
* طالما غالب صيَّاد السمك التعيس غيظه المسعور كحيَّة الظهيرة
طالما تقلَّب على الرمال الهشَّة في غمرة الطقس المجنون
طالما هرب إلى أعالي البحر ليُغرق هواجسه

لكنه عاد دائماً بالصدف الخالي والنزيف .
ليلةَ البلّور الأسود
هبط صيَّادنا تحت أثقال لواعجه
خطف من قاعِ قاربه بلطةً مشحوذةً حتى ليستطيع المرء أن
يحلق بها لحيته
خَفش في الرمل الرَّهو نحو كوخه المتطامن تحت الريح
والظلام
تطلَّع عبر النافذة الوحيدة
شاهد زوجته المتمدِّدة على المصطبة المفروشة بالقش والحَسك
دفع الباب بحذر شديد
وقف فوق رأس زوجته النائمة
حدَّق فيها بهلع
وقبل ان يتراجع أمام زحمة الشكوك والهواجس
قبل أن يُرخي التردد عضلات ذراعيه البائستين كفرعي
شجرةٍ عاقر
رفع البلطة إلى أقصى مَبلَغٍ فوق رأسه
وأهوى على عنق الزوجة الوادعة .

انفصل الرأس عن الجسد دون نأمة
اجتاحت الصيَّاد الملعون حمّى وحشيَّة
وأقبل على الجثة يقطعها أشلاء وهو يهذي :
« لا . لا . لن أحمل وحدي كل هذا العذاب بعد اليوم
لن تتقطع شراييني على نصال الدهشة الدائمة
لن تكون بشاعة الزمن والمسافة قسمتي وحدي !! »
لملم الصيَّاد المنكوب أشلاء زوجته الشهيدة ،
دسَّها في كيسٍ ضخمٍ . وحملها الى البحر
كانت العاصفة تلفُّ أمواج البحر الهائج
كشيخٍ يلف سيجارة
وقف صيَّاد السمك على الشاطىء الزَّنِخ
وفي الماء الداكن المحتقن بالأسرار
أفرغ كيسه الرهيب (في المقلاة الهائلة التي نسمّيها أيضاً
« البحر »)
هُرعت أسراب الأسماك الجائعة
وراحت تقضم الأشلاء بأسنانها النهمة المدبَّبة كمسامير نعش .
قذف الصيَّاد بشبكته الوحشية

وأطبق على كومةٍ من السمك المذعور
في الصّباح أكل سكّان الجزيرة أسماك الصيَّاد
وسرعان ما امَّسَخوا مثل زوجته
أمّا أنا أيها السيدات والسادة
فكنتُ أراقب كل ما يجري
من فوق صخرةٍ هائلة ..
كان عليَّ أن أفعل شيئاً لإنقاذ مَن تبقّى من آدميين على الأرض
بيد أنني كنتُ عاجزاً عن الهبوط من على صخرتي العملاقة
أمرتُ البحر : « أيها البحر ، ارسلْ إليَّ ثلةً من أمواجك ! »
أقبلتْ ثلة الأمواج وراحت تلطم صخرة الملح من كل جانب
وئيداً وئيداً ذابت صخرة الملح فاستويتُ واقفاً على أرض الجزيرة
خَفَفتُ إلى قارب الصيَّاد
أخذتُ بلطته الرهيبة
أهويت بها على عنقه
وانفصل الرأس عن الجسد دون نأمه .

ونجا مَن بقي على الأرض من آدميين سَويِّين .

*

لو أن أحداً روى لي هذه الحكاية لما صدَّقت
لكن كيف أكذِّب عينيَّ الملطختين بالدم ويديّ ؟
تكلَّم أيها البحر !
وانطقي أيتها الجزيرة !

(*) الفناريس ـ جمع غنريس، وهو حيوان لم يوجد بعد .
(*) التّنفات ـ جمع تنفة، وهي شجرة لم توجد بعد.
(*) في رواية أخرى وردت كلمة «صدنت» مكان «هدأت» .. والله أعلم .

(١٩٧٨)